البشير الإبراهيمي بين الأدب الإصلاحي و إصلاح الأدب

د/سالم سعدون•

الملخص:

تهدف هذه المقالة إلى معالجة قضية الأدب الإصلاحي عند البشير الإبراهيمي الذي يمثل فئة كاملة من المثقفين الذين ينتمون إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و الذي كان أحد روادها و قادتها الرئيسيين. حيث أسهمت أنشطته متعددة الجوانب التي اضطلع بها في إطار الجمعية في توعية المجتمع الجزائري من خلال توسيع شبكة المدارس وتعزيز نفوذ الصحافة الإصلاحية،فمن خلال كتاباته في الصحف وقف ضد الاستعمار بجميع أشكاله و تصدى لفكر الطرقيين وأنتقد ممارساتهم المخالفة للدين الاسلامي، وهذه الرؤية الإصلاحية عند الإبراهيمي لم تقتصر على الأنشطة الإصلاحية بل امتدت أيضا إلى إصلاح الأدب الجزائري باللغة العربية وإعطائه الخصائص الشكلية و المضمونية الرئيسة الخاصة به.

Abstract:

The objective of this article is to address this problem which is the reformist literature in El Bachir El Ibrahimi, which represents a whole class of intellectuals of the Association of Algerian Muslim Scholars, which was one of its main leaders. Thus his multifaceted activities undertaken under (AOMA) contributed to the awareness of the Algerian society by extending the school network and strengthening the influence of the reformist press. And through its courses and writings in the press that clerics protested against colonialism in all its forms and practices related to critical maraboutism. The reformist vision in El Ibrahimi is not limited to the stage of reformist activities, but also wanted to reform the Algerian literature of Arabic Language and give it its own major formal characteristics.

في دراسة أي ظاهرة اجتماعية ما أو غيرها لابد أن نملك أدوات منهجية لتفكيكها ودراستها و تحليلها.و غالبا في مواجهة أي ظاهرة يطرح دائما السؤال عن المنهج المناسب لدراستها،وظاهرة الإصلاح بقدر ما تبدو واضحة من الوهلة الأولى في المستويين الفكري والأدبي إلا أن التعمق فيها يطرح مجموعة من الإشكالات المنهجية.لعل أهم هذه الإشكالات هي الزاوية التي نلج منها إلى هذه الظاهرة، لأن الأدبيات التي ورثناها عن مفهوم الإصلاح حصرته في زاوية واحدة، مما حدا بالبعض أن يتوهم أن كل حديث عن الإصلاح مرهون بنظرة دينية أكثر من غيرها.

يعود هذا التوهم إلي المنطلقات الأولى التي رفع فيها رجال الإصلاح دعوتهم الإصلاحية الدينية،فكان لواؤهم الدين.و ليس غريبا أن يتسم المصطلح بهذه الصفة عند ذلك الرعيل الذي يمثل الطليعة حيث كان ملاذهم الدين الإسلامي كحصن

منيع في مواجهة الفكر الغربي بكل مواصفاته الدينية و غيرها. وهذه النظرة تفرض علينا أن ننظر إليها و ندرسها كما رآها أصحابها.

فهؤلاء العلماء الذين يمثلون الحركة الإصلاحية الأولى في العصر الحديث –رغم كل ما يقال عنهم- يتوحدون في المنطلق الواحد ولكنهم لا يتفقون في الهدف الواحد،فالمنطلق هو الدين كمرجعية فكرية ينطلقون منها، لأن الدين الإسلامي يدعو إلى ذلك بإلحاح وكلمة الإصلاح وردت في القرآن في مواضع عديدة و بعدة معاني،لذا اتخذوه وسيلة يسعون إلي تحقيق أهداف مختلفة باختلاف الزمان والمكان الذين يؤسسون فيهما للدعوة الإصلاحية لذا «فإن الوقوف عند حركة الإصلاح الديني كالوقوف عند أية ظاهرة معرفية أو إنسانية أو اجتماعية يجب ألا يتم بمعزل عن ظروفها وملابساتها وأوضاعها بل ضمن إطارها ونسقها العام ومرجعيتها وشبكة علاقاتها المتناسجة، ومن دون هذا الوقوف لا يمكن أن تتبين قيمتها السلبية أو الإيجابية»[1]فالتوهم أن المقصود من الإصلاح هو إصلاح ديني دون غيره من مجالات الحياة سيختزل الفكر الإصلاحي في الخطاب الفقهي وخطاب الطرقية.بينما يتوجه الخطاب الإصلاحي الديني إلي فكر الإنسان المسلم،يستنهضه ليأخذ أمور حياته ودينه بيده، يدعوه إلي النهل من النبع في عقيدته وهي القاعدة الإصلاحية التي أرستها الحركة الإصلاحية الجزائرية في دعوتها فمن«الغلط أن يقال إن جمعية العلماء جمعية دينية يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح الديني بمعناه الذي عرفه الناس،و من فروع هذا الغلط ما رماها به بعض مرضى العقول و صرعى الجهل من أنها خرجت عن مدارها حين زجت نفسها في بعض شؤون الحياة غير الدين»[2] و إذا كان الإبراهيمي يعبر عن رؤية الجمعية فهو أولى بتطبيقها و هذا ما يجعله يختلف عن رجال الإصلاح المشارقة رغم كونهم يعدون أحد مصادر فكره.و لعل الإمام محمد عبده و تلميذه رشيد رضا أكثر تأثيرا فيه و يبدو ذلك في تبجيله لهما«لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني و العلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده-رضي الله عنه- و أنه أندى الأئمة المسلمين صوتا و أبعدهم صيتا في عالم الإصلاح...حمل لواء الإصلاح بعد موت الإمام تلميذه الأكبر و وارث علومه السيد محمد رشيد رضا...و اضطلع بعد موته بحمل أعباء الإصلاح حين نكل عن حملها أقوام و ضعف عن حملها أقوام،و استقل بتسيير سفينته فكان الربان الماهر»[3]،و الإعجاب بشخص أو بفكره لا يعني دائما الاستنساخ للتجربة،فالظرف التاريخي و الاجتماعي يتحكم كثيرا في انتقال التجارب بكل وسائلها وأهدافها.

إن الظروف التي ظهر فيها الإبراهيمي كاد المستعمر أن يستحكم فيها قبضته على المجتمع الجزائري ،حيث صد في وجهه جميع أبواب الرقي و التقدم واستشرى فيه الفساد،فانصهر في الدفاع عن المجتمع الجزائري في أحلك الظروف الاستعمارية ،و انتهى به إخلاصه لوطنه إلى تحديد أهداف واضحة منها أن الجزائر لن يعود إليها مجدها إلا بأمرين هما محاربة المستعمر وإصلاح ما فسد في المجتمع.فلا يمكن معرفة مدى النهضة التي حملها الإبراهيمي مع أصحابه في الحركة الإصلاحية إلا بمعرفة عمق الانحطاط الذي سبقها،من هنا جاء الاهتمام بالإصلاح

الاجتماعي أقوى مما يمكن أن ننتظره من جمعية دينية.والانتصار على المستعمر وطرده يعد ناقصا، إن لم يستكمل بإصلاح المجتمع.لذا نجده يرد بقوة على من كان في ريبة من أمره في خوض الجمعية غمار السياسة -و إن لم ينظم أعضاؤها إلى أي حزب أو تنظيم سياسي- بقوله(نحن سياسيون منذ خلقنا،لأننا مسلمون منذ نشأنا ،و ما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها...فما سار سائر في السياسة إلا على هدانا، و ما ارتفعت فيها صيحة إلا و كانت صدى مرددا لصيحاتنا...وكنا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها و هو الدين لنبني عليه كل ما يأتي بعده»[4].فالإصلاح الديني له بعد اجتماعي و سياسي في آن واحد.و لإيصال أفكاره لا بد له من وسائل تعبيرية ملائمة للفكر الإصلاحي،و أحد هذه الوسائل هو ما يمكن أن نسميه الأدب الاصلاحي بمختلف أشكاله.

إذا كان مصطلح الإصلاح و مفهومه لا يزال في حاجة إلي ضبط وتحديد، لأنه يرتبط برغبات و أهداف دعاة الإصلاح أنفسهم بحيث يرد ب«استعمالات كثيرة ومعاني متعددة،فمرة يراد به التحديث و مرة يراد به النهضة و التمدن وأخرى التغيير والتجديد،وغير ذلك من الاستعمالات المعاصرة التي تمليها الرغبة في إزالة ما يعوق و يفسد و يشد المجتمع إلى الوراء»[5]،فإن مصطلح الأدب الإصلاحي أكثر التباسا و تعقيدا في تحديد أشكاله و مضامينه.

أشكال الأدب الاصلاحي/الابراهيمي المصلح:

ما دامت الحركة الإصلاحية تعد وسيلة لإصلاح أوضاع المجتمع المتردية، بغض النظر عن أسباب التردي و تعبيرا عن ضمير كل أمة متخلفة تتوق إلى اللحاق بالركب الحضاري لا بد أن تجد لها أشكالا تعبيرية أدبية لنشر أفكار دعاتها.و لعل أشكال التعبير الشفاهية لا تقل شأنا عن الكتابة الأدبية لما لها من دور فعال و تأثيري في نفوس المجتمعات التي تتفشى فيها الأمية و هذا ما تنبه إليه البشير الإبراهيمي نفسه حين يستعرض الحالة العلمية في الجزائر فيشيد بالشعر الملحون لما له من وظيفة اجتماعية و دينية فيقول « بل أنا أحكم بأن في الشعر الملحون ما هو شعر على الحقيقة،فقد سمعت من القرن الماضي ما يفيض حكمة وحثا على الفضائل والكمالات،و تخويفا من الله و الآخرة»[6] ،هذا الاستحسان ينم عن ملكاته الخارقة التي جعلته يرى أن الإصلاح ليس مجرد تعديل أو تغيير بسيطين للأنساق الدينية والاجتماعية الموجودة ليكتفي بنوع أدبي واحد،إنما يرى الإصلاح هو استخدام علاج مباشر للفساد و توعية وتحسيس الفرد بتقبل التغيير للانتقال من وضع إلى آخر،و هذا يتطلب أقرب الأشكال الأدبية إلى فكرالفرد البسيط وذهنه،و أشكال التعبير الشعبية من ضمن الأشكال التي أسهمت في الإصلاح الاجتماعي.وإلي جانب هذا الشكل الأدبي هناك نوعان أدبيان لهما من الدور الإصلاحي ما يفوق الأنواع الأدبية الأخرى و هما المقال و الخطابة،و هما فنان قديمان في التراث العربي وظفا لإحياء الثقافة العربية و أعطيا مضامين ومفاهيم جديدة تساعد على مسايرة العصر.و كان لظهور النهضة الأدبية في الجزائر،التي ساعد في ظهورها ما حدث من نهضة في المشرق العربي، السبب المباشر لظهور الصحافة التي«كانت مشعلا من مشاعل تلك النهضة ولعبت دورا كفاحيا بطوليا في معركة التحرر الوطني.و من أشهر تلك الصحف صحيفة

الشهاب»[7] والبصائر التي احتضنت فن المقالة الأدبية بل طورته.و كان للمقال الإصلاحي الصدارة في المنجز الأدبي في تلك الفترة و جاءت مقالات دعاة الإصلاح«شديدة الحماسة دافئة العاطفة بل حارتها،قوية اللهجة،مشبعة بالإيمان الشديد بالمبدأ الإصلاحي،فكانت تعمل عملها في القلوب و تؤتى أكلها الطيب في الإبان المطلوب»[8]هذا هو نهجهم في الإصلاح بكل أنواعه،و يعد البشير الإبراهيمي أحد رواده و كان له الدور الكبير في النهضة الأدبية الجزائرية،ركز جهده فيها على مواجهة الاستعمار الفرنسي بوسيلة أكثر قسوة على المستعمر و أكثر نفوذا إلى وجدان الأمة هو القلم حيث«دبج الإبراهيمي أروع المقالات،و أبدع التحليلات وخاض في صفحاتها أصدق الهجمات على الاستعمار وسياسته،و أعنف الحملات على الذين خانوا أمانة الإسلام والأوطان و لولا ذلك القلم السيال و الفكر الجوال و العزم الصوال لكانت جريدة البصائر كبقية الجرائد..في أسلوب بديع،وبيان رفيع،يذكر بأزهى عصور اللغة العربية»[9]بهذه الروح و هذه العزيمة أسس الإبراهيمي للأدب الإصلاحي الجزائري مضمونا و شكلا.

مجالات الأدب الإصلاحي:

1. اللغة العربية:

إن الموضوعات التي عالجها أدبه الإصلاحي عديدة تعكس قاعدة دعوة جمعية العلماء و أسلوبها في الدعوة و لا يحيد عنها،و ما دام أن الجمعية كما يقول«أسست لغايتين شريفتين لهما في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة،و هما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية»[10] نجده ينافح عن اللغة العربية و يكتب فيها وبها،متصديا بذلك للمخطط الاستعماري الذي«بدأ حربه ضد اللغة العربية الفصحى و معاهدها و رموزها ورجالاتها لكي يتمكن من تقطيع أوصال هذه الأمة و تجزئتها و عزلها عن دينها الإسلامي،بعزلها عن كتابها ومرشدها القرآن العربي المبين»[11]لأن الاستعمار يدرك أن انتشار اللغة العربية يشكل خطرا على الوجود الفرنسي نفسه،فلجأ إلى تشجيع اللهجات العامية الجزائرية لمنافسة الفصحى،لكنه بذلك يكون قد أسهم في إحياء الثقافة الشعبية الجزائرية التي تمثل أصالته من حيث لا يدري،و صدق الإبراهيمي حين قال(وإذا أراد الله بأمة خيرا جعل يقظتها على أيدي أعدائها).

و لم يدافع الإبراهيمي عن اللغة العربية خوفا من طمسها من المستعمر فحسب،وإنما لقيمتها ولكونها لغة عالمية و لغة العلم التي أسهمت في نقل كثير من العلوم إليها و نقل علوم أخرى إلي ثقافات أخرى «فلو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم و ما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون»[12]،و كثير من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا عن طريق اللغة العربية و خير دليل على ذلك ما قام به الفيلسوف ابن رشد من شروح و تلخيص لكتب

أرسطو،حتى عد الوسيط الوحيد بين الثقافة اليونانية واللاتينية فعرف عند اللاتينيين بالشارح الأكبر لفلسفة أرسطو،و لم يكن ذلك إلا باللغة العربية.

ولم يقتصر جهد الإبراهيمي في التصدي لمحاربة العربية بالكلمة ،لكنه وضع لها خطة طويلة المدى أتت أكلها بعد حين من الدهر تمثلت في تربية النشء وإعداده ليقود النهضة الأدبية و الاجتماعية و السياسية بالاهتمام بالإصلاح العلمي[13]،فوضع خطة منهجية يتحقق بها إعداد النفوس لانطباع الملكات العلمية الصحيحة فيها،و هو أحسن السبل للمحافظة على اللغة العربية و الإقبال على تعلمها،فكانت الممارسة البيداغوجية على رأس هذه الخطة غرضها تحقيق هدفين:تطهير النفوس من الرذائل،و اتقان طرائق التدريس بحيث تكون دروس رجال الإصلاح تؤدي غرضين:الإصلاح العلمي بأسلوبها و لغتها ومناهجها ونوع كتبها،و لغرض الإصلاح الديني بمعاليها و مواضيعها[14] لأنه يؤمن بأن جمعية العلماء ما تأسست إلا لأداء هذين الغرضين:خدمة الدين الإسلامي و اللغة العربية.إن الجمعية منذ أن كانت مشروعا إلي اليوم الذي أصبحت فيه حقيقة لم يقصد مؤسسوها من ورائها إلا«غرضا واحدا و هو جمع القوى الموزعة بين العلماء على اختلاف حظوظهم في العلم،لتتعاون على خدمة الدين الإسلامي واللغة العربية و النهوض بالأمة الجزائرية من طريقهما»[15]فبقدر ما شغل موضوع اللغة العربية فكر الإبراهيمي بقدر ما شغله البحث عن الوسائل التي يحقق لها الرقي.

2. الإصلاح الديني:

يمثل الإصلاح الديني حلقة رئيسة في تاريخ جمعية العلماء المسلمين باعتباره يمثل مشروعا فكريا و اجتماعيا و سياسيا،وقد نمت فكرة الإصلاح الديني وتبلورت لمواجهة ذلك المنحدر الذي كان يهوي إليه المجتمع الجزائري،و أكثر ما اشتبكت معه فكرة الإصلاح الديني هو الفكر الطرقي الذي سعى من خلاله رجال الطرقية إلى احتكار الدين وتسخيره لأغراض مشبوهة،حتى أن منهم من حاول أن يتنزل منزلة الوسيط بين العبد وخالقه،بل الثابت أيضا أن الاستعمار وسعيا منه إلى كسب ولاء هؤلاء و دفعهم إلى التماس الشرعية لوجوده،أغدق عليهم و رفع من شأنهم. و لقد أدرك الإبراهيمي خطورة هذا الانحراف الديني وأصحابه فتصدى لهم بنفس القوة التي تصدي بها للمستعمر لأن عقيدته«في الطرق هي أنها علة العلل في الفساد ومنبع الشرور،و أن كل ما هو متفش في الأمة من ابتداع في الدين،و ضلال في العقيدة،وجهل بكل شيء،و غفلة عن الحياة ،و الحاد في الناشئة ،فمنشؤه من الطرق ومرجعه إليها»[16] و قوة فساد أولائك قابله قوة إصلاح هؤلاء،حتى ليبدو لمتتبع عمل الجمعية أنها انشغلت بمحاربة هذا الفكر أكثر من انشغالها بأمور اجتماعية أخرى،لكن معرفة السبب يبطل هذا التوهم،فمعرفة أحوال الأمة و مناشيء أمراضها يدرك أن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرقة المسلمين،و يعرف أنها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين و الدنيا،لذا وجب القضاء على كل

باطل و منكر وضلال[17]،و يؤكد اضافة إلى ذلك«أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي نوع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشئومة،و مع ما لها من سلطان على الأرواح و الأبدان ومع ما فيها من إفساد للعقول و قتل للمواهب»[18]هكذا كانت نظرة الإبراهيمي المصلح الديني والاجتماعي عميقة بعيدة عن السطحية في معالجة الأمور جسدها في شكل أدبي يتقن استعمال أدواته الفنية فيه،ويحسن عرض المشكلة منهجيا و يبسط أفكاره فيها فلا يتبادر إلي ذهنك سؤال إلا ويفاجئك بالإجابة عنه.

و إذا كان لا يختلف اثنان في امتلاك الإبراهيمي لنظرة ثاقبة ينفذ منها إلي معالجة القضايا التي انشغل بها فهو أيضا يملك ناصية الإبداع،يتقن استعمال أدواته الفنية من لغة و أسلوب بل هو فارس فيها.و له أيضا ميزة في أسلوبه و هي السخرية التي وظفها كوسيلة من وسائل التغيير بأسلوب لاذع لأن«السخرية لا تختلف كثيرا عن العنف لأن استخدام سلاح السخرية في الأدب ضرب من العنف...السخرية تهكم معنوي شديد اللذع،ثقيل الوطء،عنيف الوقع»[19]والسخرية ليست هزوا فحسب و لكن الهزأ هو العنصر الأهم فيها ،فالهزؤ هو الذي يعطي السخرية صفتها الأساسية،صفة تربطه بموضوعه ربطا وثيقا.و السخرية إنما تكون من شيء أو من شخص و تتضمن قصدا معينا غير مجرد الإضحاك مثلما فعل الإبراهيمي حين تهكم من تنصيب الإدارة مفتي العاصمة الذي ادعى انتسابه إلى المذهب الحنفي في حين أن الشعب الجزائري مالكي المذهب فيسخر من ذلك بقوله«و في تلك الإدارة نفسها معمل لصنع الرجال على أشكال و مقادير مخصوصة ،لا يشترط في المادة الخام إلا أن تكون ذات قابلية و استعداد وطوع و انقياد وفي المعمل جهاز كيموي من خصائصه إحالة الأعيان معاني،و المعاني أعيانا فيحيل الرجال مكائد،و المكائد رجالا»[20]فالسخرية هنا تعبر عن تصرفات الادارة الاستعمارية مع لمؤسسة الدينية في الجزائر،و لسخرية الإبراهيمي درجات أدناها الهزؤ وأوسطها التهكم وأعلاها القذف بأقذع الكلام مثل ما وصف به الشيخ عبد الحي الكتاني المغربي الذي والى السلطات الفرنسية«إن اسم صاحبنا لم يصدق فيه إلا جزؤه الأول،فهو عبد لعدة أشياء جاءت بها الآثار و جرت على ألسنة الناس،و لكن أملكها به الاستعمار،أما جزؤه الثاني فليس هو من أسماء الله الحسنى و لا يخطر هذا ببال مؤمن يعرف الرجل ويعرف صفات عباد الرحمن...و إنما هو بمعنى القبيلة،كما يقال كاهن الحي و عراف الحي وعير الحي،و قبح الله الاشتراك اللفظي فلو علم العرب أنه يأتي بمثل هذا الالتباس لطهروا منه لغتهم»[21]لقد أسهمت السخرية عند الإبراهيمي بشكل فعال و مؤثر في فتح فجوات ساخرة مكنتها من كشف الأسباب التي أدت إلى الظلم و الاستبداد بأسلوب مبك ومضحك في الوقت نفسه غرضه الأساس النقد المباشر للأوضاع السائدة آنذاك.

إصلاح الأدب/ الإبراهيمي الناقد:

لقد أدرك الإبراهيمي و آمن منذ البدء بوظيفة الأدب و علاقته بالإصلاح و يوضح ذلك في تبيان الغرض من تأسيس الجمعيات الأدبية«فهي نصيرة الحقائق وعدوة الأوهام و الخرافات ..تغلب العلم على الجهل و الحق على الباطل و الفضيلة

على الرذيلة»[22]و هذه الوظيفة أعم من أن تكون وظيفة دينية محضة،بل ارتقى بها لتشمل مختلف مناحي الحياة.و ليؤدي الأدب تلك الوظيفة يلتمس له كل أسباب النهوض،من مناخ ثقافي و فكري تتلاقح فيه الأفكار كتأسيس« اللجنة الأدبية و تتكون من الأدباء و الشعراء الجزائريين و تقوم بالبحث في الآداب العربية بأوسع ما يعطيه مفهوم هذه الكلمة»[23]و هذا التوجه يفسر لنا الاتجاه الأدبي والفني الذي انتهجته الجمعية،يبحث في التراث العربي ليحييه أولا وليأخذه نبراسا يهتدي به ثانيا،فالإبراهيمي يقر بأن من يبحث في ماضي الحالة العلمية الجزائرية«لا يجد من الآثار العلمية الكتابية ما يكون مرآة تتجلى فيها روح عصرها إلا بعض ما أبقته الليالي من رسائل في الاخوانيات تدل على مقام أصحابها في الأدب و لا تدل على مقامهم في العلم،إذ كانوا لا يسمون الأدب علما و لا يعتدون به و لا يقيمون له اعتبارا»[24]و هذا الحكم التاريخي على الأدب لا يفهم على حقيقته إلا بفهم السياق الذي ورد فيه و الفترة الزمنية التي عناها،لأنه لا ينسحب على كل الفترات التاريخية القديمة للأدب الجزائري.

وعالج الابراهيمي قضية أساسية في العملية الإبداعية و هي عالمية الأدب«فالأدب خلاصة التجارب الإنسانية و الثقافية البشرية خلال الأجيال»[25]، والأديب الأصيل هو الذي يطل من خلال تجربة مجتمعه إلى ما ورائها إلى القيم الإنسانية المتجددة ،فالأدب لا يعرف الحدود وهذه النظرة النقدية عند الإبراهيمي متقدمة سعت إلى الوقوف على معايير نقدية تتجاوز الذوق الشخصي و الجمالية الذاتية فالأدب عنده هو الذي نهتز له و يثير فينا الإعجاب.

و لم يهمل الإبراهيمي أهمية المبدع في العملية الإبداعية فيدعو إلي حمايته من كل الضغوط و الفاقة. و أول شروط هذه الحماية أن نوفر للأديب مناخ الحرية والعيش الكريم. فالتجربة الأصيلة الصادقة لا تتكون إلا في مثل هذا المناخ « فأول ما يجب أن نحمي منه الأديب و الأدب هو تلك العواصف التي تطفئ جذوته وتمسخ نوره و رونقه،و تمسه بالعوز والكدية والصعلكة،فلا بد أن نبذل للأديب من رحابة الحياة و يسر العيش ما يجعله معتدل الحس رضي النفس صادق التعبير»[26]،إن النظرة الإصلاحية لقضايا المجتمع عند الإبراهيمي امتدت لتشمل العملية الإبداعية،فلا يمكن إصلاح الأولى إلا بإصلاح الثانية.

و ليتحقق هذا الإصلاح الأدبي يجب أن تتوفر له أسباب النجاح،و أول الشروط للرقي بالأدب هو الاهتمام بمستوى اللغة العربية باعتبارها الوعاء الذي يحوي الأفكار.وقد يتوهم البعض أن هناك تناقضا بين هذه الدعوة و الرسالة الإصلاحية التي تتطلب أدبا يتسم بالتبسيط والوضوح لاستيعابها من متلقي تلك الفترة من تاريخ الجزائر الذي تجذرت فيه الأمية،إلا أن الإبراهيمي له رأي مغاير في ذلك حين يؤكد أن استعمال الفصحى لم يكن حائلا لتوصيل المعنى حين يصف تجربته في ذلك بقوله:(و قد بدأت دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربية الفصحى و أخذت نفسي على ذلك أخذا أصل فيه إلي درجة الإغراب أحيانا،و كان لي من وراء ذلك الالتزام غرضان:- أحدهما إقامة الدليل للمتعلمين باللغات الأجنبية على أن الفصحى لا تعيا بحمل المعاني مهما تنوعت و علت ،و أنها تبذُ اللغات في ميدان التعبير عن

الحقائق و الخيالات والخواطر والتصورات و قد بلغت من هذا الغرض ما أريد.- و الغرض الثاني أن أحدث في نفوس العامة المحبين للعلم و الدين أسفا يقض مضاجعهم فيدعهم إلي تدارك ما فاتهم منها في أبنائهم»[27]،فاللغة إذن عنصر مهم من عناصر الرقي الأدبي مشافهة و كتابة.

و هذه الملكة اللغوية التي يتميز بها رجالات جمعية العلماء و تلاميذهم هي التي ميزت أدبهم وأمدته خصوصية خاصة به حيث«أصبح الطراز الأدبي الجزائري طرازا مستقلا يُحتذى به ولا يحتذي،ليست عليه مسحة التأثر و المحاكاة،و إذا كانت ناشئتنا متأثرة بالتعاليم الزيتونية فإن ذلك التأثر لم يجاوز العلميات أما الأدبيات فلا »[28]و هذا لا يعني به محلية الأدب الجزائري،إنما يعني به خصوصيته التي شكلها الأديب الجزائري بنفسه.

الهوامش

• أستاذ محاضر أ، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة.

[1] - نعيم اليافي،حركة الإصلاح في عصر النهضة،مركز الإنماء الحضاري،حلب سوريا،2000.ص 15.

[2] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1،جمع أحمد طالب الإبراهيمي،دار الغرب الإسلامي،1997،ص 282.

[3] - المصدر نفسه،ص 177.

[4] - آثار الابراهيمي ج 4،مرجع سابق،260-261.

[5]- محمد بريش،مفهوم الاصلاح أو نحو اصلاح لفهم المصطلح،حولية: امتي في العالم،مج 7،مركز الحضارة للدراسات الإسلامية،القاهرة،2007.ضمن موقع:www.alukah.net

[6] -آثار الإبراهيمي،ج1،ص 46.

[7] -سعاد محمد خضر،الأدب الجزائري المعاصر،منشورات المكتبة العصرية،بيروت،1967.ص 51.

[8]- عبد المالك مرتاض،فنون النثر في الجزائر 1931-1945،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1983،ص 151.

[9]-مقدمة:محمد الهادي الحسني ، آثار الابراهيمي،ج2،ص 27.

[10] - أثار الابراهيمي،ج1،ص 133.

[11] - أحمد بن نعمان،اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي و المستقبل،مركز دراسات الوحدة العربية،لبنان،2005،ص 59.

[12] - آثار الإبراهيمي،ج376،1.

[13] - راجع محاضرته حول عرض الحالة العلمية،آثار الإبراهيمي،ج1،ص 143.

[14] - أنظر:آثار الإبراهيمي،ج1،ص 145.

[15] - آثار الإبراهيمي،ج1،ص 186.

[16] - آثار الإبراهيمي،ج1،ص 189-190.

[17]- راجع: آثار الإبراهيمي،ج1،ص 190.

[18]- المصدر نفسه،ص190.

[19] - عبد المالك مرتاض،فنون النثر الأدبي في الجزائر،ص 384.

[20]- آثار الإبراهيمي،ج3،ص 87-88.

[21] - آثار الإبراهيمي،ج3،ص 540.

[22] - آثار الإبراهيمي،ج1،ص61

[23] - المصدر نفسه،ص 105.
[24] - المصدر السابق،ص 146.
[25] -آثار الإبراهيمي،ج211،5.:محاضرة ألقاها في المؤتمر الثالث للأدباء العرب 1957.
[26] -المصدر نفسه،ص 212.
[27]- المصدر نفسه ،ص 149.
[28]- آثار الإبراهيمي،ج1،ص 153.

مراجع البحث :

1- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،جمع أحمد طالب الإبراهيمي،دار الغرب الإسلامي،1997.
2- ابراهيم مهديد،الدور الإصلاحي و النشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي على نهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931-1944،دار قرطبة للنشر والتوزيع،الجزائر 2011.
3- أحمد بن نعمان،اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي و المستقبل،مركز دراسات الوحدة العربية،لبنان،2005.
4- بيار ماشيري،بم يفكر الأدب؟تطبيقات في الفلسفة الأدبية،ترجمة:جوزيف شريم،المنظمة العربية للترجمة،بيروت،2009.
5- رايموند وليلمز،الثقافة و المجتمع 1780-1950،ترجمة:وجيه سمعان،الهيئم المصرية العامة للكتاب،القاهرة،(دت).
6- سعاد محمد خضر،الأدب الجزائري المعاصر،منشورات المكتبة العصرية،بيروت،1967.
7- عبد المالك مرتاض،نهضة الأدب العربي في الجزائر1925-1954،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط2،الجزائر،1983 .
8- عبد المالك مرتاض،فنون النثر في الجزائر 1931-1945،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1983.
9- محمد بريش،مفهوم الاصلاح أو نحو اصلاح لفهم المصطلح، حولية: أمتي في العالم،مج7،مركز الحضارة للدراسات الإسلامية،القاهرة،2007.ضمن موقع:www.alukah.net
10- محمد الصالح الصديق،شخصيات فكرية و ثقافية،شركة دار الأمة للطباعة والنشر،الجزائر،2002.
11- نعيم اليافي،حركة الإصلاح في عصر النهضة،مركز الإنماء الحضاري،حلب ،سوريا،2000.